وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«٢١»

يوسف العظمة

إعداد : بسام جميدة

الهيئة العامة السورية للكتاب

يوسف العظمة

رسوم الغلاف

عبد الناصر الشعال

الهيئة العامة السورية للكتاب

بسام جميدة

يوسف العظمة

ذاكرة لا يمحوها الزمان

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

يوسف العظمة / بسام جميدة .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م .- ٨٨ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٢١)

١- ٩٢٣,٥ ط: العظمة، يوسف ج ٢- ٨١٠,٨ ج
م ي ب ٣- العنوان ٤- جميدة ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«٢١»

مقدمة

تشدُّنا قصص البطولة والأبطال من كلّ مكان، فكيف إذا كان البطل من أبطال بلدنا الذين ضحوا بحياتهم من أجل أن تبقى سورية وطناً حرّاً أبيّاً، عصّياً على المستعمرين، الذين رحلوا عنه، عبر تلك البطولات التي سطَّرها هؤلاء الأبطال؟!

وعندما نستعرض سيرة هؤلاء، فإنَّنا نعتزُّ بالتاريخ ونتمثّله في الحاضر ونستشرف المستقبل، وندوِّن للأجيال ملاحم أسَّست لحياتهم كي يعيشوا بشموخ وكبرياء.

وسنتحدَّث في هذه السلسلة عن البطل يوسف العظمة الذي يحار المرء من أين يبدأ حديثه عنه إذ يعتبر من أهمِّ الأبطال الذين أنجبتهم البطون العربيَّة في القرون الأخيرة.

فما قام به العظمة لا يدخل باب البطولة العاديَّة، التي قد تجدها لدى الكثيرين، بل هي بطولة إستراتيجيَّة، وبطولة ستظلّ محفوظة للأجيال الصاعدة من العرب، والسوريين.

فهذا الرجل سجَّل ما لم يسجّله غيره، لقد سجَّل درساً بليغاً ورسالة سامية بأنَّ دمشق ليست سهلة المنال.

دخل يوسف العظمة التاريخ، ودخل ذاكرة الأدب، وأقيم له تمثال وسط دمشق، وسمّيت ساحة باسمه. ومع ذلك لم يأخذ هذا البطل ما يستحقّه من الاهتمام، ومنها قلّة المراجع التي تتحدَّث عنه، ولم نجد إلاَّ اليسير منها ووجدنا فيها بعض التضارب بالأخبار والمعلومات.

ونتمنَّى من وزارتي التربية والتعليم العالي إدراج سيرته في المناهج الدراسيَّة بشكل معمَّق، للتأكيد على بطولات مَنْ مهَّدوا لنا الطريق، ولم يستسلموا للمحتلّ، إذ أبى يوسف العظمة أن يدخل الجنرال الفرنسي (غورو) دمشق دون مقاومة تذكر.

وهو البطل الذي رفض أن ينحني أمام العدوان والاستعمار، رغم إدراكه الكامل، كعسكري محترف، لعدم توازن القوى. وآثر الشهادة على حياة يضطر فيها أن يرى الأعداء يطؤون أرض بلاده. وكان مثلاً للبطولة والفداء.

وحينما يكون الأمل في تحقيق النصر ضئيلاً، بسبب التفوّق الكبير للمعتدي في العدد والعتاد، وحينما يكون الاستسلام والخضوع لقوّة القهر أمراً مهيناً، تبرز بطولة من نوع خاص،

وهي بطولة الكرامة والإباء، وهذا ما بدا واضحاً في سيرة بطلنا الذي آثر الموت على أن يرى عدوّاً مغتصباً يدنّس بأقدامه ثرى وطنه.

ابن السادسة والثلاثين عاماً يتَّجه إلى حتفه طواعيةً... فيبني مجده... ومجد بلاده.

يوسف العظمة الذي كان يتبوَّأ منصب وزير الحربيَّة آنذاك وكان منصبه لا يحتّم عليه النزول لمثل هذه المواجهة الخاسرة سلفاً، لكنَّه استسهل الموت على الذلّ، وكتب بدمائه، ودماء من كانوا معه، صفحات لن ينساها التاريخ، كما لم ينسها العدوّ الذي دخل غازياً وخرج مهزوماً.

وفي الرابع والعشرين من شهر تمّوز من كلّ عام، نستذكر معركة الشرف والكرامة معركة ميسلون التي خاضها أوَّل وزير حربيَّة سوريّ - في مواجهة غير متكافئة - كي يمنع دخول الفرنسيين إلى عاصمة بلاده الحبيبة، فضرب بذلك أروع أمثلة الإباء والشمم والتمسُّك بالحريَّة.

واليوم الذي استشهد فيه يمثّل رمزاً من رموز الكرامة الوطنيَّة، التي لا يمكن أن تموت معانيها حتَّى في أشدّ ظروف القهر، وأحلك لحظات الهزيمة التي يمرُّ بها الزمن العربيُّ.

ضريحه في ذرا ميسلون مزار السوريين جميعاً، يستذكرونه بورودهم ورحلاتهم، ومناسباتهم الوطنيَّة والقوميَّة، نجماً من نجوم هذا الوطن ورمزاً من رموز عزَّته وسيادته واستقلاله.

فيما تحوَّل منزله في حي المهاجرين، حالياً، إلى متحف خاصّ يوثّق ما تركه من مقتنيات خاصَّة به.

الهيئة العامة السورية للكتاب

تعريف بالبطل

هو يوسف بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل باشا التركماني الشهير بالعظمة، سليل أسرة دمشقيَّة توارثت التقاليد العسكريَّة منذ القرن السابع عشر، ويرجع نسبها إلى الجدّ الأكبر حسن بيك ابن موسى باشا التركماني، الذي استوطن حيَّ الميدان في دمشق أوائل القرن الحادي عشر للهجرة.

كان متديّناً متمسّكاً بإسلامه، مؤدِّياً لصلاته، وصائماً أيَّام الصوم، ومحافظاً على شعائر الإسلام.

كان يوسف العظمة رجلاً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، معتزّاً بنفسه، وبعروبته اعتزازاً واضحاً، وكان يتحلّى بكثير من الصفات الحسنة، التي شهد له بها حتّى أعداؤه، كما كان عسكريَّاً بطبعه ، يؤمن أنَّ للجيش مهمَّة واحدة هي أن يقاتل،

بصرف النظر عمّا إذا كان سيربح، أو يخسر نتيجةً لهذا القتال، وكان يعلم أنّه لا بدَّ من معركة فاصلة بين السوريين وفرنسا، ولم يمنعه من خوضها علمه المسبق بأنَّه سيخسرها، لأنَّه آمن بأنَّ دهس الجنود الفرنسيين لأجساد الشعب واستيلاءهم على المدن المدمّرة، أفضل وأشرف ألف مرّة من فتح أبواب البلاد أمام الجيش الفرنسي ليدخلها بسهولة، ويمشي في شوارعها مستعلياً..

كان يوسف العظمة معتدل القامة، ذا هيبة ووقار، واضح الذكاء، شديد البأس، قويَّ المراس، ظاهر البسالة، عظيم الحماس، كما يصفه كلُّ مَنْ عاصره، وعرفه.

- متميّز دائماً

هنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ يوسف العظمة قد نال خلال دراسته في الدولة العثمانيَّة، وخدماته في جيشها عدَّة أوسمة وميداليَّات، تقديراً لنبوغه ومواهبه العسكريَّة الخاصَّة والمتميِّزة. وقد قام خلال فترة خدمته في الجيش العثمانيّ بإعداد برامـــج متقدّمة للتدريب العسكريّ، وأنظمة الإعـــداد ،

وأسلوب التعامل مع الجند. وترجم كتاباً عن المؤلِّف روكر من اللغة الألمانيَّة إلى اللغة التركيَّة، بعنوان «بيادة عجمي نفري نصل تيشدرلر» أي «كيفيَّة إعداد الجندي المبتدئ للعسكريَّة من الناحيتين الجسديَّة والمعنويَّة». وهو محفوظ في مكتبة المتحف الحربيّ باستنبول تحت رقم «EHT ٦١٧/٢»..

ولم تقتصر معارفه وثقافته على العلوم العسكريَّة وحسب، بل كان يجيد – إضافة إلى العربيَّة – اللغات التركيّة والألمانيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، وأحاط بثقافات ومعارف عصره.

- طفولته وتعليمه

ولد يوسف في حيِّ الشاغور (الصماديَّة) بدمشق الشَّام في منتصف شهر رجب عام (١٣٠١هـ) الموافق (٩نيسان ١٨٨٤م)، وكان أبوه موظَّفاً في ماليَّة دمشق، ووالدته هي (ليلى الشربجي) من الأسر الدمشقيَّة العريقة.

توفّي والده حين كان ابنه يوسف في السادسة من عمره، فتعهَّد تربيته شقيقه الأكبر عبد العزيز. ولمَّا ترعرع دخل المدرسة الابتدائيَّة في الياغوشيَّة بالقرب من دار أبيه ، ثمَّ

التحق بالمدرسة الرشديَّة العسكريَّة في جامع يلبغا بحيّ البحصة بدمشق عام (١٨٩٣م)، ولأنَّ الالتحاق بالجيش آنذاك كان بمثابة الحلم لكلّ شابّ، فقد توجَّهت أنظار الفتى اليتيم يوسف إلى تعلُّم اللغة التركيّة، التي درسها عاماً كاملاً، ثمَّ التحق وهو في الثانية عشرة من عمره بالمدرسة العسكريَّة العثمانيَّة، المسمَّاة "مدرسة شام إعدادي عسكري"، والتي كان مقرّها في جامع تنكز في شارع النصر حالياً.

- حياته العسكريَّة

تفوَّق يوسف على أقرانه في المدرسة العسكريَّة، ولذلك أرسلته السلطات العثمانيَّة، بعد ست سنوات، إلى المدرسة الحربيَّة في الآستانة (استانبول) المدعوَّة آنذاك بـــ «حربيَّة شاهانه»، وتخرَّج فيها عام (١٩٠٣ م) برتبة ملازم ثان، أي: بنجمة واحدة، وفي عام (١٩٠٥م) أصبح ملازماً أوَّل... ومن ثمَّ انتقل لمدرسة الأركان حرب، حيث أتمَّ فيها العلوم، والفنون الحربيَّة العالية، وحصل على رتبة نقيب (يوزباشي) أركان حرب عام (١٩٠٧م) ، وكـــان الأوَّل بين

رفاقه في صفوف المدرسة كلّها، فكوفئ على نبوغه بالميداليَّة الذهبيَّة بـــ (وسام المعارف الذهبيّ) المحدثة من قبل السلطان عبد الحميد الأوَّل لتلاميذ المدارس العالية.

ثم تدرَّج يوسف بالرتب العسكريَّة وحصل على شهادة ركن محليّة، قبل أن يُرسل إلى العاصمة الألمانيَّة (برلين)، لإتمام علومه العسكريَّة، بعد أن أظهر نباهة ونبوغاً خلال حياته العمليَّة، ونال في برلين شهادة (أركان الحرب)، كما أتقن اللغة الألمانيَّة.

عاد يوسف إلى (استانبول) ليصبح رئيس أركان حرب الفرقة (٢٠) في الجيش التركي، فرئيس أركان حرب الفرقة (٢٥) المتواجدة في بلغاريا آنذاك، والواقعة تحت احتلال السلطنة العثمانيَّة.

ثم اختارته القيادة العسكريَّة العثمانيَّة ليكون لفترة معاوناً للقائد الألمانيّ ديتفورت في لبنان، لقضاء فترة تدريبيَّة، إذ كانت العلاقات قويَّة بين الدولتين العثمانيَّة والألمانيَّة في تلك الفترة، حيث اختار الانضمام إلى سلاح الفرسان، وبعد أن أنهى فترته التدريبيَّة في ثكنـــة رامي بالآستانة في لـــواء

الفرسان، تمَّ نقله إلى بيروت إلى فوج القنَّاصة (تشانجي) المشاة العاشر المتمركز هناك، ليعهد له بعدها تدريب الدرك اللبناني.

وفي عام (١٩٠٨م) استدعي إلى الآستانة، وعُيّن مدرِّباً مساعداً لمادَّة التعبئة في مدرسة الأركان حرب، التي أحدثت حينذاك في قصر يلدز السلطانيّ، ثمَّ نقل عام (١٩٠٩م) ليكون مع الجيش العثمانيّ، المرابط في منطقة الروملي على البرِّ الأوربيّ برتبة «رئيس متفوّق» (رئيس أركان حرب)، وفي العام نفسه أرسل في بعثة عسكريَّة إلى ألمانيا، حيث التحق بمدرسة أركان الحرب العليا لمدَّة سنتين، عاد بعدها إلى الآستانة، على أثر مرض أصابه لشدَّة البرد في ألمانيا، ومن ثمَّ عُيّن ملحقاً عسكريَّاً في المفوضيَّة العثمانيَّة العليا في القاهرة، ومعاوناً للمفوض السامي العثمانيّ.

وفي عام (١٩١٢ م) انتهى إلى الشعبة الأولى المتفوّقة (الأركان حرب) في الآستانة، ثمَّ أخذ في التنقّل بين قطعات الجيش العسكريَّة، إبَّان حرب البلقان (١٩١٣م) حتَّى اندلاع الحرب العالميَّة الأولى.

ثمَّ كانت الحرب العالميَّة الأولى (١٩١٤- ١٩١٨م) فأُرسل رئيساً لأركان حرب الفرقة الخامسة والعشرين العاملة في بلغاريا، وشارك مع القوات الألمانيَّة في ميادين النمسا ومقدونيا ورومانيا، وكان موضع ثقة وتقدير قائد الجبهات المارشال ماكترون قائد القوى الألمانيَّة المحاربة، الذي أخذه لهيئة أركان حربه باسم الجيش العثمانيّ، ثم عاد يوسف إلى الآستانة حيث اختاره وزير الحربيَّة العثمانيَّة أنور باشا مرافقاً له، وتنقَّل معه لتفقُّد الجيوش العثمانيَّة في الأناضول وسورية والعراق، وعلى أثر تأزُّم الموقف بجبهة القفقاس عيِّن رئيساً لأركان حرب القوَّات المرابطة في القفقاس.

وعندما انتهت الحرب العالميَّة الأولى في نهاية تشرين الأوَّل عام (١٩١٨م)، وعقدت الهدنة بين المتحاربين، عاد يوسف العظمة إلى الآستانة (استنبول)، ومنها قدم إلى دمشق (مسقط رأسه) عقب دخول الأمير فيصل بن الحسين إليها.

- العظمة يشكّل جيش المملكة السوريَّة:

عاد يوسف العظمة إلى دمشق في نهاية الحرب العالميَّة الأولى، وعيَّنه الأمير (فيصل بن الشريف حسين) مرافقاً شخصيَّاً له، ونزل في دارته الكائنة في حيّ المهاجرين قرب دمشق، وبعد ذلك أرسله الأمير (فيصل) ليكون نصيراً له في بيروت.

وبعد تنصيب (فيصل بن الحسين) ملكاً على سورية، تسلَّم يوسف العظمة وزارة الحربيَّة برتبة / فريق- باشا /، وبدأ بتشكيل الجيش العربيّ في المملكة السوريَّة، هو وبعض الضبَّاط العرب المُسرَّحين والفارِّين من الجيش التركيّ، وأصدر الفريق العظمة قانون الخدمة الإلزاميَّة لشباب سورية كافَّة كي يكون جيشاً يحمي سيادة البلاد، لكنَّ الدول الاستعماريَّة وأَدت هذا الحلم في المهد. فبعد مؤتمر (سان ريمو) الذي فضح النوايا الاستعماريَّة الغادرة، والذي نصَّ صراحة على الانتداب، تحرَّكت جيوش الحلفاء المنتصرة على دول المحور للانقضاض على حلفائها من الشعوب المستضعفة ومنها الشعب العربيّ، لتمزيقه وتقسيمه إلى

دويلات وشعوب صغيرة حتى يسهل ازدرادها، ولابتلاع ما اقتسمته المؤامرات الاستعماريَّة.

- **إنـذار غـورو**:

عندما أخذت الحكومة الفرنسيَّة تسعى لتنفيذ الانتداب الذي أقرّه مؤتمر (فيرساي) - حسب تقسيمات اتفاقيّة (سايكس-بيكو) - بشكل عمليّة احتلال عسكريَّة كاملة، عقدت هدنة مع تركيا، وأرسلت قوّات عديدة للشرق، وفوّضت الجنرال (غورو) مفوّضها السامي بإرسال إنذار نهائيّ إلى الملك (فيصل)، وعندما وصل خبر الإنذار - الذي لم يرسل رسمياً بعد - إلى مجلس (المؤتمر السوريّ - ما يقابل مجلس النوّاب-) اجتمع يوم (١٣/ تمّوز (يوليو)/ ١٩٢٠م)، حيث ألقى (يوسف العظمة) وزير الحربيَّة في حكومة (هاشم الأتاسي) بياناً عن الموقف، وأعلنت الإدارة العرفيَّة في البلاد.

وفي مساء الرابع عشر من تمُّوز عام (١٩٢٠م) وصل إلى دمشق القائد الفرنسيّ (ماندر)، بكتابٍ من الجنرال غورو

إلى الملك فيصل ابتدأه بالعبارة التالية: «من الجنرال غورو المفوَّض السامي للجمهوريَّة الفرنسيَّة في سورية وكيليكية، والقائد العام لجيش الشرق إلى صاحب السموّ الملكيّ الأمير فيصل». وتلا ذلك بيان طويل أنهاه غورو بالبنود التالية:

«لذلك ترى فرنسا أنَّها مضطرَّة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها، وسلامة السكَّان والتي نالت من مؤتمر السلم مهمَّة الوكالة عليهم، فأتشرَّف بأن أبلّغ سموّكم الملكيّ أنَّ هذه الضمانات هي كما يأتي:

١- أن ترضى الحكومة العربيَّة بالانتداب الفرنسيّ دون قيد أو شرط.

٢- أن تعيد الجيش السوريَّ إلى ما كان عليه في شهر شباط، (أي قبل أن يتعهَّده يوسف العظمة بالتدريب والإعداد، مع تسريح أعداد كبيرة من منتسبيه).

٣- أن ترضى بالتعامل بورق النقد السوريّ (الذي وضعته فرنسا).

٤- ألاَّ تمانع سورية في احتلال السلطات الفرنسيَّة لمحطَّات خطوط حديد رياق- حلب – بعلبك – حمص – حماة احتلالاً عسكريَّاً، مع احتلال قلب مدينة حلب».

جمع الملك فيصل وزراءه لمداولة الأمر بينهم، فكان رأي الكثيرين منهم النزول عند مطالب غورو ومهادنته، وقبول الإنذار، وهنا برز رأي يوسف العظمة بالإنذار، فعندما سأله الملك فيصل عن رأيه في إنذار غورو قال كلمته المشهورة: «إذا كان لنا لسان فلكي نتكلّم به، وإذا كان لنا جيش فلكي نحارب به في مثل هذه الظروف العصيبة».

وبالرغم من قبول الحكومة السوريَّة للإنذار، والعدول عن فكرة المقاومة، وقبول مطالب الجنرال غورو، والأمر بتسريح الجيش السوريّ، وسحب الجنود من روابي قرية مجدل عنجر، مخالفة بذلك قرار المؤتمر السوريّ العام (البرلمان)، ورأي الشعب المتمثِّل بالمظاهرات الصاخبة المندّدة بالإنذار، وبمن يقبل به، فإنَّ القوات الفرنسيَّة بدأت زحفها من البقاع باتّجاه دمشق، معلّلة ذلك بتأخُّر وصول الجواب من الحكومة السوريَّة بقبول الإنذار (تأخّر الجواب نصف ساعة)، عندئذ لم يكن أمام أصحاب الغيرة والوطنيَّة إلاَّ المقاومة حتَّى الموت، وكان على رأس هذا الرأي وزير الحربيَّة يوسف العظمة.

- قبــول الإنـذار:

ورغم الرفض الشعبيّ والاستياء الشديد من الإنذار – حتَّى ضمن (المؤتمر السوريّ) - إلاَّ أنَّ الملك فيصل وحكومته قرّرا قبول الإنذار لسببين مهمَّين:

- نزولاً عند نصيحة اللورد الإنجليزيّ (اللنبي) عند استشارته، إذ أشار بسرعة القبول لتفويت الغاية التي يسعى إليها (غورو) بدخول دمشق دخول الفاتحين!.
- ضعف الذخائر والأسلحة لدى الجيش العربيّ..!

وتمّ قبول الإنذار، واضطرَّ (العظمة) لمجاراة رفاقه في الحكومة، والرضوخ لهذا القبول، رغم رأيه القائل دوماً بأنَّ "الجيش وجد ليقاتل حتَّى لو كانت نتيجة المعركة ضدّه"..!

وأُرسلت برقية لـــ (غورو) في بيروت لإعلامه بقبول الإنذار، فردّ بأنَّ المقصود بالإنذار ليس القبول فحسب، بل تنفيذ شروطه بكاملها قبل منتصف ليل (٢١/ تمّوز (يوليو)/ ١٩٢٠م)، وفي الحقيقة لم يكن هناك مبرّر لهذا الردّ، لأنَّ الحكومة العربيَّة بدأت بالفعل بتنفيذ الشروط وتسريح الجيش،

الأمر الذي لم يعجب (المؤتمر السوريّ)، فعقد جلسة غير عاديَّة يوم (١٩) تموّز وسحب الثقة علنيّاً من الحكومة، إلاَّ أنَّ الحكومة في اليوم التالي أعلنت في بيان تلاه وزير الحربيَّة (العظمة) تعليق جلسات (المؤتمر) لمدّة شهرين، وقام الملك (فيصل) بكتابة مذكّرة جدّية إلى (غورو) لإعلامه بالتنفيذ، وسلّمها إلى الكولونيل (كوس) المعتمد الفرنسيّ في دمشق قبل انتهاء المهلة، إلاَّ أنَّ (كوس) لم يرسل المذكّرة إلى (غورو) واكتفى بإرسال برقيَّة بمضمونها، إلاَّ أنَّ البرقيَّة تأخَّرت بسبب تعطّل خطوط البرق، فتذرّع (غورو) بتأخّرها، وأصدر الأمر لجيوشه بالتحرّك نحو دمشق!

قام الملك (فيصل) بمحاولة أخيرة للتفاهم مع (غورو)، وأرسل السيد (ساطع الحصري) وزير المعارف موفداً للتفاهم معه، وأثناء مرور (الحصري) على ميسلون في طريقه إلى بيروت طلب منه (العظمة) الذي كان يحاول لمّ فلول الجيش، أن يحصل على أطول هدنة ممكنة، ليتمكَّن من جمع أكثر ما يمكن من العتاد والسلاح.

استطاع (الحصري) الحصول على هدنة لمدة (٢٤ ساعة) بعد موافقته باسم حكومة دمشق على شروط إضافيَّة، إلاَّ أنَّ المفاوضات الجديدة مع (غورو) لم تثمر إلاَّ عن شروط جديدة أقسى من سابقتها، دلّت بوضوح بأنَّه لن يتراجع عن احتلال دمشق مهما يكن، وهكذا وجد الملك والحكومة أنَّه لم يعد هناك مجال لقبول هذه الشروط الجديدة وتمَّ رفضها.

وكان الملك فيصل قد أبرق إلى الجنرال غورو بالموافقة على الشروط الأولى وحلّ الجيش، ولكن بينما كان الجيش العربيّ المرابط على الحدود يتراجع منفضًّا، كان الجيش الفرنسيّ يتقدَّم بإمرة الجنرال غوابيه (بأمر من الجنرال غورو) باتّجاه دمشق، ولمّا سُئل عن هذا الأمر أجاب بأنَّ برقيَّة فيصل بالموافقة على بنود الإنذار وصلت إليه، بعد أن كانت المدَّة المتَّفق عليها (٢٤ ساعة) قد انتهت.

وهكذا في اليوم نفسه (٢١ تموز سنة ١٩٢٠م)، وبينما كان الملك ينتظر أن ينتهي إليه نبأ إعلان الجنرال غورو إلى جيشه بالتوقُّف، فإذا به يتبلَّغ أنَّ الزحف الفرنسيَّ نحو دمشق

قد بدأ، وأنَّ شرذمة من الجيش العربيّ التي بقيت في البقاع لجمع الأسلحة والذخائر من السكّان، قد وقعت في قبضة الفرنسيين فعاملوها معاملة الأسرى الأعداء لا الحلفاء.

وعقد اجتماع تزعَّمه الأمير زيد شقيق الملك، الذي كان يشغل منصب القائد العامّ للجيش العربيّ، وكانت كلمة يوسف العظمة في الاجتماع العسكريّ، الذي عقد في ساعات الخطر، برئاسة الأمير زيد أمام تخوّف عدد من كبار الضبَّاط من خوض المعركة، قوله: «معاذ الله أن نستسلم لليأس والقنوط». وبدأ باتّخاذ التدابير العسكريَّة السريعة ومنها:

- وقف أعمال التسريح.
- الاتّصال ببعض العلماء أصحاب التأثير على الشعب، لدعوة الناس إلى التطوّع والسير نحو الجبهة، من أمثال المحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ كامل القصَّاب.

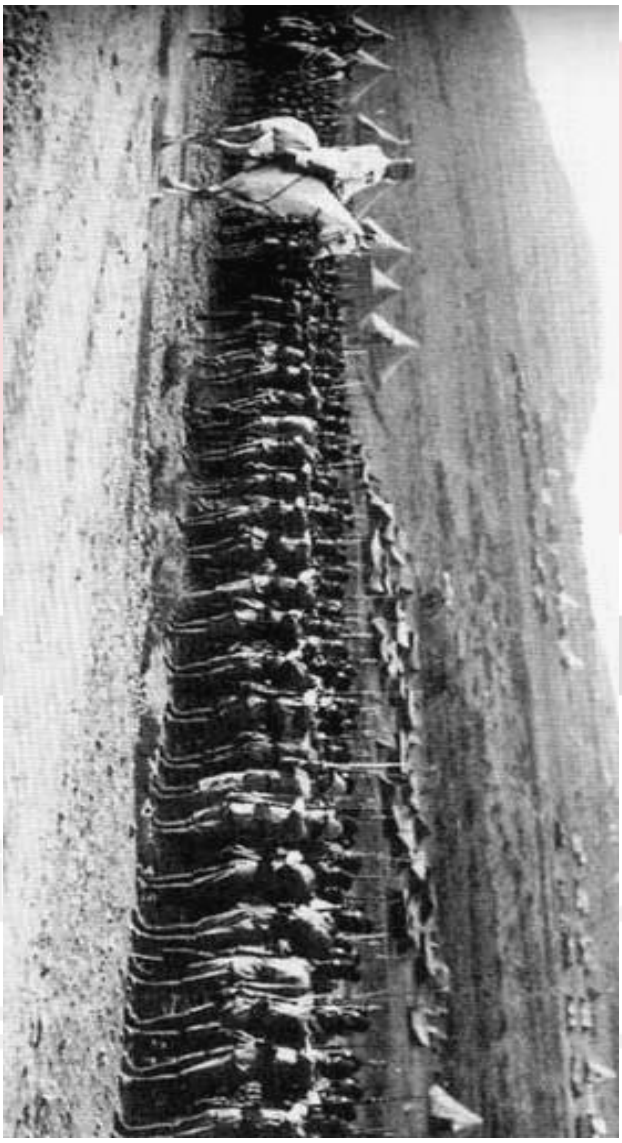

معركـة ميسـلون

يقول ساطع الحصريّ بمذكّراته وهو أحد رجال حكومة فيصل يومئذ: «كان يوسف العظمة يعمل بنشاط، ويظهر تفاؤلاً كبيراً، وقد أتمَّ الترتيبات العسكريَّة اللازمة، ووضع الخطَّة العسكريَّة المحكمة للدفاع، وعَيَّن القوَّاد الذين عهد إليهم بإدارة الحركات وتنفيذ الخطَّة في مختلف الجبهات، وأهمّها: (جبهة مجدل عنجر في البقاع).

وتمنَّى الباشا حسن، من وزير الحربيَّة الشهيد يوسف العظمة أن يعود إلى دمشق ليرسل لهم من هناك الذخائر والمؤن والمتطوّعين فقال يوسف: لقد جئت لأموت معكم، فالوطن إذا دخل تحت نير الاستيلاء فلا تستطيعون إنقاذه ولا بشقّ النفس).

خرج (العظمة) ليتولّى قيادة الجيش في ميسلون في يوم (٢٣/ تموز (يوليو)/ ١٩٢٠م) واجتمع بالضبَّاط الذين لم يتمّوا تنفيذ أمر تسريحهم، وأبلغهم أنَّ الحرب لابدَّ قائمة، وأوعز إلى جميع القوى لتكون على أهبة الاستعداد، لصدِّ العدوّ المهاجم، وألقى على قادته شفهيَّاً خطَّته الدفاعيَّة - الهجوميَّة، والتي تتلخَّص في تنظيم خطّ دفاعيّ في وسط الجبهة على جانبي الطريق (القلب)، مع فرز وحدات خفيفة إلى يمين ويسار الجبهة لحماية الجناحين (الجناح الأيمن والجناح الأيسر)، إضافة إلى وضع ألغام محليّة الصنع على الطرق المؤدّية إلى المنطقة...

وتذكر بعض الكتب أنَّ الملك فيصل استنجد بالوطنيين السوريين لتأليف جيش أهليّ، يقوم مكان الجيش المنفضِّ في الدفاع عن البلاد، وتسارع شباب دمشق وشيوخها إلى ساحة القتال في ميسلون، وفي ذلك الموقف تزعَّم يوسف العظمة عمليَّة الدفاع عن دمشق، وقال للملك فيصل كلمته الشهيرة مستعيناً ببيت الشعر العربيّ:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتَّى يُراق على جوانبه الـــدَّم

ويتابع ساطع الحصريّ - وهو أحد رجال حكومة فيصل آنذاك - في مذكّراته: «في ليلة الرابع والعشرين من تمُّوز جاء يوسف العظمة يودّعنا قائلاً إنَّه سيتوجَّه إلى الجبهة، ولكنَّه قبل أن يغادرنا انتحى زاوية من الغرفة وقال لي: أنا ذاهب، إنَّني أترك ليلى أمانة في أعناقكم، أرجوكم لا تنسوها».

وتوجَّه يوسف العظمة للملك – وفق ما ورد في مذكّرات أحمد قدري، الذي كان مرافقاً للملك فيصل وطبيبه الخاص، والذي شهد نهاية مناقشة طلب فيها يوسف العظمة خوض المعركة قائلاً: «هل يأذن لي جلالة الملك بأن أموت»؟ ثمَّ عاد ليكرّر وصيَّته على مسامع الملك قائلاً: «ليلى أمانة في أعناقكم». (وليلى هي ابنته الوحيدة من زوجته التركيَّة).

وكانت كلماته الأخيرة قبيل ذهابه إلى القتال: «إنَّي أعرف ما يجب عليّ، وسأقوم بواجبي، ولست آسفاً على نفسي ، بل

أسفي على الأمَّة التي ستظلّ سنوات كثيرة أو قليلة هدفاً لكّل أنواع المحن والمصائب، وإنّي مطمئنّ إلى مستقبل الأمَّة، لما رأيته وخبرته بنفسي من قوَّة الحياة الكامنة فيها، وواثق من عطف أصدقائي على طفلتي (ليلى)، فسأذهب مستريح البال، مطمئنّ القلب، في طريق الواجب المفروض عليّ».

تقدَّم يوسف العظمة جمهور المتطوّعين على غير نظام، وإلى جانبهم عدد يسير من الضبَّاط والجنود، تحت راية، محفوظة حتَّى الآن في المتحف الوطنيّ بدمشق، وهي العلم العربيّ من حيث الشكل والألوان، وقد كتب على اللون الأسود: «وجاهدوا في سبيل الله»، وكتب على اللون الأبيض: «إنَّ الله معنا»، وكتب على اللون الأخضر: «إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً». وكتب على الوجه الآخر: على اللون الأسود: «لا إله إلاَّ الله»، وعلى اللون الأبيض: «محمَّد رسول الله»، وعلى اللون الأخضر: «اللواء الأوَّل للمشاة سنة ١٣٣٨».

وتمركز (العظمة) في مركز قيادة الجبهة في أعلى مرتفع يشرف على الجبهة بكاملها ، وبعد أن أدَّى صلاة الفجر ليوم

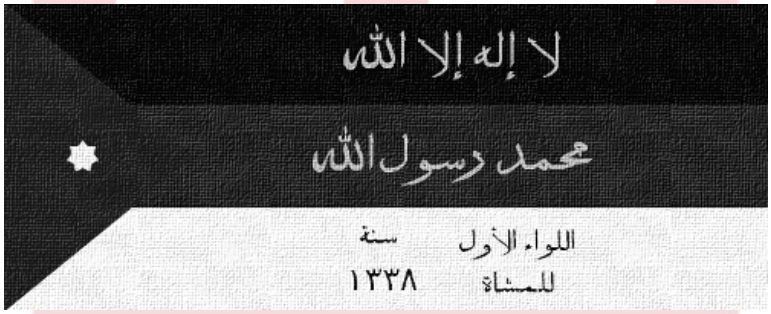
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
اللواء الأول
للمشاة
سنة
١٣٣٨

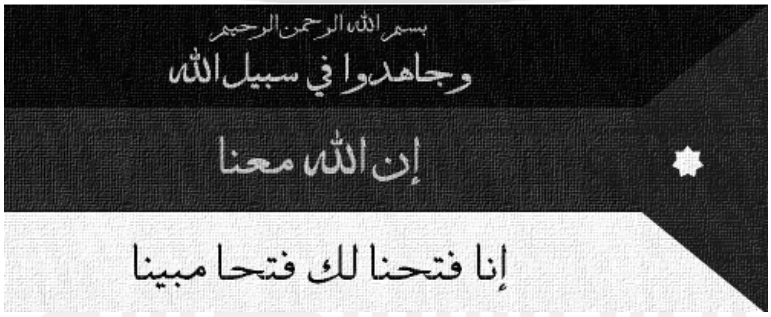
بسم الله الرحمن الرحيم
وجاهدوا في سبيل الله
إن الله معنا
إنا فتحنا لك فتحا مبينا

(٢٤) تمُّوز بدأ بالاستعداد لخوض المعركة، ومع الفجر كانت القوَّات الفرنسيَّة تشقُّ طريقها باتّجاه دمشق، وبدأ القتال وتبادل السوريّون والفرنسيّون القصف المدفعيَّ فتمكَّنت مدفعيَّة السوريين المخفيَّة في الجبال من تدمير مدافع الفرنسيين الأربعة المكشوفة وسُرَّ يوسف العظمة بذلك أشدَّ السرور.

ولكنَّ أفواج السنغاليين أطبقت على الهجَّانة السوريين في الجناح الأيسر ففرَّت جمالهم وخيولهم خوفاً من قصف الطائرات والدبَّابات وفرَّ الهجَّانة معها وانكسرت معنويَّات المتطوّعين وظنّوا أنَّ الجبهة قد سقطت كلّها. أمَّا على الجناح الأيمن فلم يصل الفرسان الألف والخمسمئة الذين وعد قائم مقام الزبداني بإرسالهم لمهاجمة الفرنسيين.

أمَّا في ميسلون فتقدَّمت الدبَّابات الفرنسيَّة تحت غطاء قصف الطائرات فأسقط السوريّون طائرة وقعت في مزرعة آل الحسيبي قرب الصبّورة ودمَّروا دبَّابة وتقدَّمت ثلاث دبَّابات فتصدَّى لها المقاومون في موقع ميسلون، (الذي يبعد ثلاثين كيلومتراً إلى الغرب من دمشق) ، فيما كانت المدفعيَّة

الفرنسيَّة تقصف المواقع العسكريَّة العربيَّة، والطائرات الفرنسيَّة تغير على المدفعيَّة أو أيّ تحصينات، ترى أنَّ من شأنها إعاقة تَقَدُّم القوات المهاجمة، ومع بلوغ الساعة السادسة والنصف صباحاً، كانت المعركة قد احتدمت بين القوَّات الفرنسيَّة المتقدّمة، والمدافعين المستبسلين، من أجل إيقاف تقدّمها، كانت حالة المعركة حسنة حتَّى الساعة التاسعة عندما بدأت المدفعيَّة الفرنسيَّة بالتغلُّب على المدفعيَّة العربيَّة، وبدأت الدبَّابات الفرنسيَّة بالتقدُّم باتّجاه الخطّ الأماميّ العربيّ في دفاع القلب. خلال المعركة كان يوسف العظمة يرقب مجرياتها من مرصده، إلى أن ظهرت دبَّابات العدوّ محاولة عبور الجسر الذي يجتاز وادي القرن، وكان قد جعل على رأس الجسر في طريق المهاجمين ألغاماً خفيَّة، فلمّا رأى العدوّ مقبلاً أمر بإطلاقها فلم تنفجر، فأسرع إليها يبحث عن السرّ في عدم انفجارها، فوجئ يوسف العظمة والباشا حسن تحسين الفقير بأنَّ اللغم الموضوع تحت الجسر الذي عبرت عليه الدبَّابات لم ينفجر ثم فوجئوا بأنَّ العبوات الناسفة الثلاث التي زرعوها في الوادي لم تنفجر بالدبَّابات ،

فوجد أنَّ أسلاكها قد قُطِّعت، وأيقن أنَّ هناك خيانة قد حصلت، فعلم أنَّ القضاء حلَّ، فلم يسعه إلاَّ أن ارتقى ذروة ينظر منها إلى دبَّابات الفرنسيين زاحفة نحوه، وجماهير الوطن من أبناء البلاد بين قتيل وشريد، وبعد نفاد الذخائر نزل العظمة من مكمنه على جانب الطريق حيث يوجد مدفع عربيّ سريع الطلقات، وأمر الرقيب سادن المدفع بإطلاق النار على الدبَّابات المتقدِّمة، وما كان من أحد رماة العدوّ إلاَّ أن أطلق ناره باتّجاه (العظمة) فخرّ شهيداً، وأسلم روحه الطاهرة هو ورقيب المدفع الذي كان بجواره في الساعة العاشرة والنصف من صباح (٢٤/ تموز (يوليو)/ ١٩٢٠م)، وقضى بين يدي المتطوّعة (نازك العابد) التي حاولت إسعافه. وهناك رواية تفيد بأنَّ العظمة الذي أدرك حتميَّة الموت استعمل بندقيَّته وبدأ يرمي على العدوّ إلى أن نالت منه رصاصات المستعمر وسقط شهيداً.

استشهد العظمة في معركة الكرامة، التي كانت نتيجتها متوقَّعة، وخاضها دفاعًا عن شرفه العسكريّ وشرف بلاده، ودفن بعد ذلك في المكان الذي استشهد فيه ، وقبره إلى اليوم

نازك العابد

جهاد.. وبطولة.. وتضحية

١٨٨٧ـ١٩٥٩

رمز التضحية الوطنيَّة الخالد. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً كان الفرنسيُّون قد استولوا على جميع الخطوط الأماميَّة، فيما انسحبت القوَّات العربيَّة المتبقّية، بعد تدمير معظم أسلحتها الثقيلة واستشهاد قائدها الكبير، فأصبح القتال غير ذي جدوى.

لقد كانت معركة غير متكافئة بكلّ المقاييس، حيث برز فيها حوالي ثلاثة آلاف من الجنود المتطوّعين بأسلحة قديمة، في مواجهة أحد عشر ألفاً ما بين ضابط وجنديّ فرنسيّ وخيَّالة، يقودهم الجنرال غوابيه، وهو حفيد أحد القادة الصليبيين الذين جاؤوا لغزو بلادنا في الحملة الصليبيَّة الثانية عام (١١٤٧م)، مسلَّحين بالدبَّابات، والسيَّارات، والمصفَّحات، والطائرات، وأحدث الأسلحة الأخرى، وعُلِم من سجلاَّت مدير الصحَّة لفرقة الجنرال غوابيه الذي استلم المشفى العسكريَّ (مشفى الشهيد يوسف العظمة حاليَّاً) أنَّ الفرنسيين خسروا في المعركة ألفاً وأربعمئة قتيل وألفاً وستمئة جريح من الجند وأربعين ضابطاً بين قتيل وجريح.

وكان عدد الفرنسيين كما يلي:

- (٨٠٠٠) من المشاة أي أربعة ألوية فيها ثمانون رشَّاشاً بين ثقيل وخفيف.
- (٣٠٠٠) خيَّال من السباهيين والمراكشيين والإفرنسيين.
- المجموع (١١٠٠٠) جنديّ.
- المدفعيَّة: اثنتا عشرة بطَّاريَّة مدفعيَّة منها خمس بطَّاريَّات صحراويَّة سريعة، وخمس بطَّاريَّات جبليَّة سريعة، وبطَّاريتان من عيار ١٥,٥ سم لمدافع سريعة (أوبوس)، فالمجموع (٤٨) مدفعاً.
- الدبَّابات (١٥) دبابة وأكثر من مئة سيَّارة نقل كبيرة.
- الطائرات (٥) طائرات.

بينما كانت أعداد المقاتلين السوريين كما يلي:

- (٦٤) جنديَّاً نظاميَّاً بين مشاة وجنديّ رشَّاش.
- (٦٠) جنديَّا من الحرس الملكيّ.
- (٢٠) جنديَّاً نظاميَّاً للمدفعيَّة.
- (٦٠) خيَّالاً نظاميَّاً للرشَّاشات.

وكان في مواجهة ذلك الجيش الفرنسي أيضاً، عدد لا بأس به من المتطوّعين (تضاربت المصادر في عددهم).

هذه القوَّة الضئيلة قابلت بكلِّ قوَّة وشجاعة وبسالة وإخلاص فرقة الجنرال غوابيه المذكورة وكبَّدتها الخسائر التالية وفق السجلاَّت الفرنسيَّة:

- ثلاثة آلاف جنديّ بين قتيل وجريح.
(١٤٠٠) قتيل و(١٦٠٠) جريح.
- (٤٠) ضابطاً بين قتيل وجريح.
- تدمير (٤) مدافع سريعة جبليَّة.
- تدمير (٤) دبَّابات ثقيلة وطائرة واحدة.

ومن خلال المقارنة بين العدد بالعدد والمعدَّات بالمعدَّات نستنتج أنَّ المعركة لم تكن متكافئة، ويسجّل التاريخ أنَّ ظفر الفرنسيين في معركة ميسلون لا يشرّفهم ولا يعدُّ من الوجهة الفنيَّة العسكريَّة ظفراً حقيقيَّاً مجيداً بل يعدُّ ظفراً للسوريين على قلَّة عَددهم وعُددهم، ومغلوبيَّة للفرنسيين، ووقفة مشرّفة للبطل الشهيد يوســف العظمة ورفاقــه الذين أشعلوا شرارة

الثورات العربيَّة لتحرير البلاد من المستعمر الفرنسيّ، حيث جاءت ثورات كثر قادها سلطان باشا الأطرش وإبراهيم هنانو وصالح العلي ورمضان شلاش وغيرهم في مختلف المناطق السوريَّة.

وهناك رواية تفيد استشهاد (٤٠٠) جنديّ عربيّ، مقابل (٤٢) قتيلاً من الفرنسيين و(١٥٤) جريحاً.

وتمكَّن الفرنسيّون من تحقيق نصر غير شريف، نظرًا لكثرة عددهم وقوّة تسليحهم، وعلى الرغم من استبسال المجاهدين في الدفاع عن الكرامة العربيَّة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

دروس من ميسلون

- العبر التي تقدِّمها موقعة ميسلون كبيرة، ليس أقلّها أنَّ الشهيد العظمة أبى أن يسجِّل التاريخ أنَّ الجيش الفرنسيَّ المعتدي غزا سورية من دون مقاومة، لكنَّ الأمر الذي لا يعرفه الكثير هو أنَّ المواجهة بين الضابطين الفريق يوسف العظمة والجنرال غورو لم تكن الأولى في ميسلون. فقد تقابل الرجلان في معركة (جنق قلعة) عندما كان يوسف العظمة في عداد الجيش العثمانيّ، وكان غورو في عداد الجيش الفرنسيّ المشارك في المعارك من ضمن دول الحلفاء، فيما كانت تركيا في عداد دول المحور. بل إنَّ يوسف العظمة كان آمر المدفعيَّة في المعركة المذكورة، وهو الذي جرح غورو في تلك المعركة وألحق أضراراً بجسده رافقته حتَّى مات.

- ولأنَّ الوطن غال لم يَتردَّد ثلَّة واسعة من الناس في الالتحاق بيوسف العظمة إلى معركة ميسلون وقاوموا ببسالة وأعطوا العالم درساً في حبِّ الموت من أجل الوطن.

- لم يكن البطل يوسف العظمة متساهلاً مع دخول القوَّات الفرنسيَّة إلى دمشق، وعندما بلغه أنَّ الفرنسيين أصبحوا على مقربة منها قرَّر أن يحاربهم دفاعاً عن بلده، مع أنَّه يعرف تماماً أنَّها معركة غير متكافئة بين اثنين، لكنَّه أراد أن يثبت للعالم أنَّ المحتلَّ لم يدخل بلاده بسهولة.

- يقول قائد جبهة ميسلون حسن تحسين الفقير في مذكّراته عن هؤلاء: (إنَّهم أبلوا بلاءً حسناً في قتال العدوّ، وأوقعوا فيه خسائر كبيرة، واستشهد معظمهم طيَّب الله ثراهم).

- كان يوسف العظمة على رأس المقاتلين، وهو المعروف باعتزازه بإسلامه، وعروبته، والملتزم بفروض دينه، وتعاليمه متحلّياً بالأخلاق الإسلاميَّة.

لقد سار إلى جبهة ميسلون كقائد للمجاهدين، لا كوزير حربيَّة، وخاض معركة استشهاديَّة لم يكن منصبه يلزمه خوضها، لكنَّ إيمانه وصدق إخلاصه لوطنه، وسمعته، وشرفه، وكرامة أمَّته، كلٌّ ذلك دفعه إلى خوض معركة الشهادة يوم السبت في السابع من ذي القعدة الموافق (٢٤ يوليو/تمُّوز ١٩٢٠م) فكان من أوَّل شهدائها حيث روَّى بدمه الطاهر أرض ميسلون، وانتقلت روحه الطاهرة إلى عالم الخلود، ودفن البطل الشهيد حيث وقع، وأقامت له أسرته ضريحاً على شكل القبور الإسلاميَّة وكتب عليه بالعربيَّة فقط:

يوسف العظمة - وزير الحربيَّة

في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هجريَّة

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

يوسف العظمة ومعركة ميسلون

في ذاكرة الفنِّ والأدب

أثْرَتْ بطولة الشهيد يوسف العظمة الساحة الأدبيَّة بالعطاء، كما أثرى بروحه أرض الوطن، وكتب الشعراء قصائد كثيرة عنه، تمجِّد بطولته وشخصيَّته الفذَّة، وتذكر بالعزَّة والفخار معركة ميسلون، التي مهَّدت لاستقلال سورية، وكانت محرِّكاً لكلّ الثورات التي لم تتوقَّف حتَّى خرج المستعمر عن أرض سورية.

لقد كان يوسف العظمة في تلك اللحظة الاستثنائيَّة التي يرقبها كلُّ مفكّر أو شاعر أو سياسيّ بكثير من التَّوق والأمل.. لحظةً يكبر فيها الإنسان الفرد ليجسِّد أمل أمَّة، أو شعار كرامتها أو رمز حرّيتها، وهكذا كان يوسف العظمة، وقد تقاطر كبار شعراء العربيَّة في القرن العشرين، أمام هذا

الموقف المهيب، ليدوّنوا بقصائدهم ما فعله يوسف العظمة ورفاقه، مشيدين بتلك التضحية وذلك الفداء، وتلك الروح الأبيَّة التي استعصت على الذلّ والهوان، ومن كتابات وأقوال الأدباء، والسياسيين، والباحثين، نقتطف لكم هذه المقاطع:

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

رثـاء شـوقـي

أمير الشعراء أحمد شوقي يرثي البطل فوق قبره بقصيدة عنوانها «حياة لا نريد لها زيالا» يقول فيها:

ســأذكر مــا حييــت جــدار قبــرٍ
بظــاهر جلــق ركــبَ الرمــالا
مقــيمٌ مــا أقامــت ميــسلون
يــذكر مــصرَعَ الأَســدِ الــشِّبالا
لقــد أَوحَــى إلــيَّ بمــا شــجاني
كما توحي القبــورُ إلــى الثكــالى
تغيــب عظمــةُ العظمــاتِ فيــه
وأوَّلُ ســــيّدٍ لقــــيَ النبــــالا
كــأَنَّ بُناتَــهُ رفعــوا مَنــاراً
من الإخــلاص، أَو نــصبوا مِثــالا

مشى ومشتْ فيـــالق مـــن فرنـــسا
تجـــرُّ مطـــارفَ الظفـــرِ اختيـــالا
مـــلأْنَ الجـــوّ أَســـلحةً خِفافـــاً
ووجـــهَ الأرضِ أســـلحةً ثقـــالا
وأَرسَـــلْنَ الريـــاحَ عليـــه نـــاراً
فما حفـــل الجنـــوبَ ولا الـــشَّمالا
أقـــام نهـــاره يُلقـــي ويَلقـــى
فلمَّـــا زال قـــرصُ الـــشمس زالا
وصاح، تـــرى بـــه قيـــدَ المنايـــا
ولستَ ترى الـــشَّكِيمَ ولا الـــشِّكالا
فكُفِّـــن بالـــصوارم والعـــوالي
وغُيّب حيثُ جـــال وحيـــثُ صـــالا

الهيئة العامة السورية للكتاب

مناجـاة

يقول الشاعر المصري علي محمود طه على لسان يوسف العظمة:

يا ميــسلونُ شــهدتِ أيّ روايــة
دمويَّـــة، ورأيـــتِ أيّ مـــذابحِ
ووقفتِ مثخنــةَ الجــراحِ بحومــة
ماجت ببــاغ فــي دمائــك ســابحِ
أمَّاه خــانتني المقــادرُ فــاغفري
قدري وإن قــلَّ الفــداءُ فــسامحي
يا يوسف العظمات غْرسُك لم يضع
وجَناه أخلــد مــن نتــاج قــرائحِ
قُمْ لحظةً وانظر دمشقَ وقــل لهــا
عاد الكميُّ مــع النفيــر الــصادحِ
ودعاكِ يا بنت العروبــةِ فانهــضي
واستقبلي الفجر الجديدَ وصــافحي

مردم بك وخصال العظمة

أمَّا الشاعر خليل مردم بك فيقول ليوسف العظمة:

عرفنـــا يـــومَ يوسُـــفَ مُبْتـــداها
فهل مـــن مخبـــرٍ عـــن مُنْتَهاهـــا
أيوســـفُ والـــضحايا اليـــومَ كُثْـــرٌ
لِيَهْنِـــكَ كُنْـــتَ أوّلَ مـــنْ بَـــداها
فَـــدَيْتُكَ قائِـــداً حيّـــاً ومَيْتـــاً
وَضَـــعْتَ لِكُـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ لِوَاهـــا
ويالـــك عـــاثراً أنهـــضت منَّـــا
عـــزائمَ بعـــد مـــا وَهَنَـــتْ قواهـــا
سَمَتْ بـــك للمعـــالي نفـــسُ حـــرٍّ
لقـــد كانـــت منيَّتهـــا مُناهـــا
هويـــتَ علـــى المنيّـــة لا تبـــالي
كما تهوي الثواقـــب مـــن ســـماها

الحامد يبشِّر العظمة بالجلاء

وهذا الشاعر بدر الدين الحامد يقول بقصيدته يوم الجلاء:

يوم الجلاء هو الـــدنيا وزهوتهـــا
لنـــا ابتهـــاج وللبـــاغين إرغـــامُ
يا راقداً في روابي ميـــسلون أفـــق
جلت فرنسا فما في الـــدار هـــضَّامُ
لقـــد ثأرنـــا وألقينـــا الـــسواد وإن
مرَّت على الليـــث أيَّـــام وأعـــوامُ
(غورو) يجيء (صلاح الدين) منتقماً
مهـــلاً فـــدنياك أقـــدار وأيَّـــامُ
هذي الديار قبـــور الفـــاتحين فـــلا
يغرُّك ما فتكوا فيها ومـــا ضـــاموا
مهد الكرامـــة عـــين الله تكلؤهـــا
كم في ثراها انطوى ناس وأقـــوامُ

تجرُّ ذيل التعــالي فــي مرابعهــا

المجد طــوع لنــا والــدهر خــدَّامُ

وكتب أيضا عن البطل يوسف العظمة:

أنتَ في الدهرِ خالــدٌ لــن تــزولا

لــــك ذكـــــراكَ بكـــــرةً وأصـــــيلا

ثمَّ يقول:

نحنُ قــومٌ مــن الممــاتِ اتَّخــذنا

عــن يقــين إلــى الحيــاة ســبيلا

يوسفٌ خرَّ فــي العــراك صــريعاً

وكفانـــا بـــه شـــهيداً نبـــيلا

الهيئة العامة السورية للكتاب

الزركلي يحيي البطل

ويقول الشاعر سليم الزركلي في قصيدته يوم الجلاء محيّياً يوسف العظمة ومثواه الذي دفن فيه:

يا قبرَ يوسفَ لا عدَتْكَ مواطرٌ
هنَّ الرجاءُ لموطنٍ ظمآنِ
يا قبرَ يوسُفَ لستَ قبراً قائماً
ما أنتَ إلا كعبةُ الخلصانِ
هتفت بأروقة الخلود بشائرٌ
أرّقْن ألحاني، وهِجْنَ بياني
ولطالما ضجَّ الضريح من الأذى
ومضى يهزُّ مشاعري وجناني
ويُهيبُ بالثَّاوين، حسبُ بلادكم
تلقى صنوف الذلِّ والحرمانِ
لا كان لي عيشٌ يطيب، وذِمَّةٌ
إن لم أجرّدْ خاطري وسِناني

بدويٌّ الجبل يستذكر العظمة

وفي مقدّمته لديوانه الأول «البواكير» يهدي الشاعر العربيُّ الكبير بدويٌّ الجبل ثمرته الإبداعيَّة الأولى إلى الشهيد يوسف العظمة قائلاً: «إلى مثال البطولة العربيَّة، إلى الشهيد الراقد في ميسلون، إلى تلك الروح الكبيرة التي تمرَّدت على العبوديَّة وعلى الحياة» فيستذكر يوسف العظمة وكبرَ تضحيته في فرحة عيد الجلاء الغامرة ومن قصيدة عيد الجلاء فيقول:

شـــــهداءَ الحـــــقِّ لا أبكِـــــيكُمُ
جلَّتِ الغوطَةُ عن ضــعف البكــاءْ
جَــلَّ هــذا الــدَّمُ أن يُرْثَـــى لـــه
عـــارُ ســـفّاكِيهِ أَولَـــى بالرِّثـــاءْ
الربـــا فـــي ميـــسلون اســـتعْبَرَتْ
أيْنَ دمعُ الحزنِ من دمـــع الهَنـــاءْ
أقبـــل الـــدهر عليهـــا تائبـــاً
وعفا يوسُفُ عن جَـــوْرِ القـــضاءْ

تحيّة الشَّام

أمَّا الشاعر المهجريُّ الكبير إيليا أبو ماضي فيقول في بطل ميسلون:

بأبي وأمِّـــي فـــي العـــراء مُوَسّـــدٌ
بعـــث الحيـــاة مطامِحـــاً ورِغابـــا
لمَّا ثوى فـــي ميـــسلونَ ترنّحـــت
هـــضَباتُها وتنفَّـــستْ أطيابـــا
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى
كي لا يرى فـــي جلّـــقَ الأغرابـــا
وإذا نبـــا العـــيش الكـــريم بماجـــد
حرٍّ رأى المـــوت الكـــريم صـــوابا
وأتـــى النجـــومَ حديثُـــهُ فتهافتـــتْ
لتقـــومَ حرَّاســـاً لـــه حُجّابـــا
ما كان يوسُفُ واحداً بـــل موكبـــاً
للنورِ غلْغَلَ في الـــشموس فغابـــا

عروس المجد

وكتب عنه الشاعر عمر أبو ريشة:

كـــم لنـــا مـــن ميـــسلون نفـــضت

عـــن جناحيهـــا غبـــار التعـــبِ

كـــم نَبَـــتْ أســـيافنا فـــي ملعـــب

وكبـــت أجيادنـــا فـــي ملعـــب

شرف الوثبـــة أن ترضـــي العُـــلا

غلـــب الواثـــبُ أم لـــم يغلـــب

الهيئة العامة السورية للكتاب

ميسلون ونخوة الدَّم

وكتب الشاعر د. نذير العظمة عدَّة قصائد عن ميسلون ويوسف العظمة نقتطف منها:

من لم تكن ميــسلون فــي توثّبــه
يخــرُّ بالــذلِّ للجــلاَّد والــصَّنَــمِ
ويوسف المجد ما زالــت تعانقــه
أجيالنا نهضة في الصحو والحلــمِ

ومن قصيدة (ميسلون ونخوة الدَّم) نختار:

يوســف أينمــا تلفَّــت فاحــت
نخــوة الــدِّم واســتمات الرجــالُ
مــن روابيــك ميــسلون عرفنــا
كيــف تحمــي عرينهــا الأشــبالُ

فيروز تغنّي البطولة

كتب الأخوان رحباني قصيدة بعنوان (ميسلون) غنَّتها السيّدة فيروز في مطلع حياتها الفنيَّة، ومنها:

وعند الحدود وفي ميسلون

لنا ذكريات

بطولات جيش تحدّى المنون

ليفدي الحياة.. الحياة

وأحيا على الأرض عبر القرون

شعار الأباة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

غيـاب دراميّ

يوسف العظمة ومعركة ميسلون لم تأخذ نصيبها الوافي من الدراما السوريَّة والعربيَّة التي تناولت حقب تاريخيَّة كثيرة بل مرَّت عليها كخطوط دراميَّة في بعض المسلسلات السوريَّة كما في الجزء الثاني من مسلسل (أخوة التراب) للكاتب حسن م يوسف والمخرج شوقي الماجري، ومسلسل (أمانة في أعناقكم) للكاتب معتز عويتي والمخرج علاء الدين كوكش.

قالوا عنه:

«إنَّ يوسف العظمة، وهو الشابُّ الشهم الأبيّ، والوطنيّ المخلص لم يتقبَّل فكرة أن تدخل فرنسا البلاد دون أن تلاقي مقاومة، فضحَّى بنفسه ليقول لفرنسا: نحن هنا».

الزعيم الوطني فارس الخوري

وكما بجَّله مواطنوه فقد احترمه أعداؤه وهاهو يقول عنه أحد قادة الحرب:

«إنَّ الخطط والتعبئة التي أقرَّها وزير الحربيَّة يوسف العظمة لم أجد لها مثيلاً، إلاَّ في الحرب بين فرنسا وألمانيا».

الجنرال غوابيه قائد القوَّات الفرنسيَّة في معركة ميسلون

«تمسَّكوا بيوسف بكلتا يديكم فهو وحيد في الأمَّة العربيَّة».

الجنرال غورو يوصي الملك فيصل

كتبت عنه الدكتورة خيريَّة قاسميَّة:

(أراد يوسف العظمة أن يسجّل شرفاً للأمَّة العربيَّة بكاملها، شرف العسكريين في تلك المنطقة.. وشهد له العالم كلّه، وحتَّى الفرنسيُّون، لأنَّه في المواقع العسكريَّة يُحترم البطل.

وتابعت: (أقرَّ الفرنسيّون أنَّ الموقعة لم تكن سهلة، وأنَّ هناك مقاومة والمقاومة كانت جبَّارة، والدليل أنَّ أسماء الضحايا الفرنسيين كان من بينها ضبَّاط وصفّ ضبَّاط وعسكريّون عاديّون كانوا في صفوف من وقع قتيلاً في تلك المعركة، وهذه موجودة في الوثائق الفرنسيَّة، ويمكن الاطلاع عليها بسهولة رغم أنَّ البعض، ومن هؤلاء بعض المؤرّخين العرب، حاولوا أن يستهينوا بها، وقالوا إنَّها ليست سوى تظاهرة غير مرتَّبة وغوغائيَّة. طبعاً إنَّنا نغمط حقَّ الذين استشهدوا، صحيح أنَّ شهداءنا كانوا كثيرين، لكن في كلّ موقعة شرف لا بدَّ أن يكون لها أيضاً شهداء، وكان على رأس هؤلاء الشهداء يوسف العظمة).

الدكتورة خيريَّة قاسميَّة الأستاذة في جامعة دمشق، صاحبة كتاب (الحكومة العربيَّة في دمشق بين عامي ١٩١٨ – ١٩٢٠م)

- كتب **الملك فيصل** يصف ما حدث في ميسلون عبر كتيّب صغير ونادر بعنوان **(مذكّرات فيصل رسالتان من إيطاليا إلى لويد جورج)** بعض المعلومات الهامَّة عن المرحلة، يقول فيها:

(.. وخرجت الجموع من دمشق دون نظام ودون أسلحة للدفاع عن المدينة. ولم يزد عدد هؤلاء الذين تجمَّعوا في ميسلون عن الألفي رجل يضاف إليهم مئتا رجل من القبائل، وكان من الطبيعيّ أن يذهب هؤلاء جميعاً ضحيَّة المصفَّحات والطائرات الفرنسيَّة.

وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى في ميسلون، بعض رفاقي في معارك فلسطين، وإنَّي لأحني رأسي، احتراماً لهؤلاء الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل الاحتجاج على اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلاً).

- نشرت **مجلَّة الأسبوع العربيّ** اللبنانيَّة عام (١٩٦٤م) مقالة في ذكرى استشهاد البطل يوسف العظمة بقلم محمود سويد ما يلي:

(الطريق بين دمشق وبيروت لا بدَّ أن تمرَّ بميسلون.. فكأنَّما للتاريخ محطَّات أخرى غير المدن، يقف عندها ليستريح بعد عناء، أو ليجهد بعد استراحة. وكانت محطَّة ميسلون من النوع الثاني. وقف التاريخ هنا لا ليرتاح، بل ليبدأ بمعركة، سلسلة معارك كانت ميسلون الشريط السحريّ الذي يربط بينها كلّها في بيروت، ودمشق، وبغداد، وعمَّان، والقدس، والقاهرة.. فمنذ ميسلون لم يعرف الانتداب الفرنسيُّ والإنكليزيُّ طعم الراحة في بلاد العرب، فكأنَّ يوسف العظمة أشعل الفتيل ومضى.. بل الانتداب هو الذي مضى.. وبقي يوسف العظمة حيَّاً في ميسلون).

- كما كتب الأديب السوريُّ الراحل **فؤاد الشايب** في ذكرى ميسلون عام (١٩٥٧م)

(كلَّما أوغل الزمن بعيداً عن يوم ميسلون، تلفَّتنا إلى الوراء لنرى إلى الوادي الضريح والشهيد، وما حول هذه

الرموز من آيات التاريخ، أكثر وضوحاً وأعظم قَدْراً، وأظهر على الأفق سعة وطولاً.. فكأنَّ الابتعاد عن هذه الأشياء التي غدت رموزاً، يزيدنا إحاطة بها وتقديراً لها وإلماماً بعظمتها وجلالها).

وكتب الباحث الأستاذ **غسَّان كلاَّس** عن ميسلون:

(معركة ميسلون الخالدة العظيمة هي من المعارك الهامة التي غيَّرت وجه المنطقة وسورية عام ١٩٢٠، وكانت في مواجهة كلّ من يريد إرهاص طموحات وآمال الأمَّة العربيَّة، ولا سيَّما سورية في تطلّعاتها نحو الحرِّيَّة والمجد والاستقلال والعنفوان، لذلك خُلِّدت هذه المعركة، فهذه المعركة تحمل الطابع الرمزيَّ بمعنى ليست بين قوَّتين متكافئتين متماثلتين أراد من خلالها يوسف العظمة وأصدقاؤه في سورية أن يقولوا للغرب وفرنسا لن تمرُّوا، وإنَّنا هنا باقون ولن تستطيعوا أن تستعمروا أرضنا..).

أفلام تحدَّثت عن البطل

يوسف العظمة

- فيلم (يوسف العظمة سيرة المجد والكبرياء) من إنتاج التلفزيون السوريّ، وقد عرض يومي (٢٤ – ٢٥ تمُّوز عام ٢٠٠١م) في القناة الأولى والفضائيَّة السوريَّة.. وأعدَّه وكتب له السيناريو محمَّد منصور وأخرجه عدنان حجازي.
- فيلم «الشرف الرفيع» عنوان فيلم للمخرج المغربيّ محمَّد بلحاج.
- فيلم «ميسلون العين والمخرز» من إخراج د. تامر العربيد.

تمثال يوسف العظمة

اقتطعنا من مقال بعنوان (**أدقُّ التفاصيل عن تمثال يوسف العظمة (القديم)**) للكاتب شمس الدين العجلاني هذه المقاطع:

نشر الأستاذ شمس الدين العجلاني مقالة في مجلَّة الأزمنة العدد ٢٩٩ تاريخ (٢٠١٢/٣/٢٤م) عن تمثال يوسف العظمة اقتطفنا منه هذه المقاطع للفائدة:

نصب الشهيد:

في يوم من أيَّام الثلاثينيَّات تداعى السوريّون (وفي تلك الأيَّام السوريّون: هم أهل لبنان وسورية) في مدينة ساو باولو بالبرازيل لجمع التبرّعات لإنشاء تمثال للشهيد البطل يوسف العظمة، وعلى أغلب الظنّ تزعَّم هذه الحملة الدكتور خليل سعادة والد أنطون سعادة مؤسّس الحزب القوميّ

السوريّ الاجتماعيّ، والدكتور سعادة هو طبيب ومفكِّر وأديب وكاتب وصحافيّ وسياسيّ وطنيّ، أقام في ساو باولو في عام(١٩١٩م) واستدعى عائلته من لبنان.

في الثلاثينيَّات من القرن الماضي كتب الدكتور خليل سعادة عدَّة مقالات في الصحف الصادرة في البرازيل، وجّه من خلالها نداءً للجالية السوريَّة يدعو فيها إلى التبرُّع بهدف إقامة تمثال للشهيد يوسف العظمة، ففي مطلع عام (١٩٣٠م) كلَّفه عمدة "الرابطة الوطنية السوريَّة" في ساو باولو أن يتولَّى رئاسة تحرير جريدتها "الرابطة"، وتولَّى الدكتور سعادة هذا المنصب حوالي أربع سنوات متتالية. وانتخب بعد فترة رئيس شرف "للرابطة الوطنيَّة السوريَّة" وبقي في هذا المنصب حتَّى وفاته في العاشر من نيسان سنة (١٩٣٤م). وكتب في هذه الجريدة مقالين عن يوسف العظمة في العددين رقم (٢٣ و٢٦) وذلك في عامي (١٩٣٠ و١٩٣١م).

أقبلت الجالية السوريَّة إقبالاً منقطع النظير على التبرُّع لهذا العمل الوطنيّ الجليل، وجُمعت الأموال الطائلة لذلك

وكُلّف فنَّان إيطاليّ (لم أستطع معرفة اسمه) بتصميم وصنع التمثال بعد أن وُضعت بين يديه السيرة الذاتيَّة للشهيد العظمة ومجموعة صور له، وتمَّ إعلام دمشق من قبل الرابطة بما تنوي عمله، وفي نهاية عام (١٩٣٧م) انتهى تصنيع التمثال، ودعت الجالية السوريَّة في البرازيل إلى حفل وطنيّ كبير إذ رُفِع الستار عن تمثال البطل العظمة، شارك في هذا الحفل الوطنيّ الجالية السوريَّة في جميع أنحاء البرازيل وأُلقيت فيه الخطب والقصائد الشعريَّة تمجيداً للشهيد العظمة، وكانت هنالك مراسلات في الثلاثينيَّات من القرن الماضي بين دمشق وجمعيَّة الرابطة السوريَّة في ساو باولو حول تمثال الشهيد، حيث أعلمت الرابطة دمشق بما تقوم به، وفي منتصف عام (١٩٣٧م) أي قبل الانتهاء من تصنيع التمثال، ورد كتاب إلى الرابطة السوريَّة من النائب في البرلمان السوريّ المرحوم فائز الخوري ردّاً على مراسلات الرابطة السابقة مع دمشق، يتضمَّن أنَّ دمشق قامت بتشكيل لجنة لاستقبال تمثال يوسف العظمة الذي سترسله الرابطة إلى دمشق لينصب في إحدى ساحاتها الكبرى، وهي مؤلَّفة من

السَّادة شكري القوتلي وزير الدفاع (آنذاك) رئيساً وفائز الخوري نائب دمشق أميناً للسرّ، والسيّدين فخري البارودي نائب دمشق وعادل العظمة مدير وزارة الداخليَّة عضوين، وأنَّ اللجنة الآن (يعني في نهاية عام ١٩٣٧م) منصرفة لإعداد قاعدة التمثال وتعيين مكانه، وقامت الرابطة بإجراء المعاملات القانونيَّة في البرازيل وأرسلت تمثال يوسف العظمة إلى دمشق. (في تلك الأيَّام كانت سورية تحت سلطة الانتداب الفرنسيّ وكان رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي ورئيس الوزراء جميل مردم بك وشكري القوتلي كان وزيراً للماليَّة والدفاع الوطنيّ).

وصل التمثال إلى دمشق وأقيم له احتفال رسميّ وشعبيّ ألقيت فيه الخطب الوطنيَّة والقصائد الشعريَّة التي تمجّد الشهيد العظمة وتشيد بمعركة ميسلون، وتمّ نصب تمثال يوسف العظمة لأوَّل مرَّة أمام مبنى نادي الضبَّاط القديم في طريق الصالحيَّة بجانب البرلمان على زاوية النادي.

شمس الدين العجلاني - أثينا

المراجع والمصادر

- الموسوعة العربيَّة - المجلَّد الثالث عشر - الحضارة العربيَّة - العظمة (يوسف-) ص ٢٩٢.
- موسوعة الأعلام للزركلي (ج٨، ص٢١٣)
- يوسف العظمة، صفحات من أدب ميسلون، غسان كلاَّس، دار البشائر، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.
- فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة، الدكتور محي الدين السفرجلاني، دار البشائر، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨.
- بعض المواقع الإلكترونية... يوسف العظمة.. بطل معركة ميسلون
- الإذاعة والتلفزيون السوريّ. مصادر

- (موسوعة رجالات من بلاد العرب)، د. صالح زهر الدين، المركز العربيّ للأبحاث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص٨٨٢-٨٨٦.
- (موسوعة السياسة)، د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، الجزء السابع، ص٤٥٩.
- كتاب (معجم الأسر الدمشقية) د. محمد شريف الصوَّاف.
- بعض المجلاَّت والصحف القديمة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفهرس

الصفحة

مقدّمة ٥
تعريف بالبطل..... ٩
معركة ميسلون ٣٣
دروس من ميسلون ٥١
يوسف العظمة ومعركة ميسلون في ذاكرة الفنِّ والأدب.. ٥٧
رثاء شوقي..... ٦١
مناجـــاة..... ٦٣
مردم بك وخصال العظمة ٦٤
الحامد يبشِّر العظمة بالجلاء ٦٥
الزركلي يحيي البطل ٦٧
بدويٌّ الجبل يستذكر العظمة..... ٦٨
تحيّة الشَّام..... ٦٩

الصفحة

عروس المجد ٧٠
ميسلون ونخوة الدَّم ٧١
فيروز تغنّي البطولة ٧٢
غياب دراميّ ٧٣
أفلام تحدَّثت عن البطل يوسف العظمة ٧٩
تمثال يوسف العظمة..... ٨١
المراجع والمصادر ٨٥

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

هذا الكتاب إطلالة على حياة بطل لم يتوان عن التضحية من أجل عزَّة وطنه، ومنع المستعمر من تدنيس أرض بلاده، حيث قدَّم يوسف العظمة مثالاً خالداً للعالم أجمع في الشهادة وحبِّ الوطن، وسطَّر بذلك أروع الملاحم البطوليَّة.

تغنَّى به الشعراء، وكتب عنه المبدعون، وبقيت تضحيته درساً لكلِّ الأجيال.

الكتاب ملامسة جديدة لحياة البطل يوسف العظمة من كلِّ جوانبها لتكون منهلاً للأجيال، وزاداً لمن يريد الاطلاع عليها، وإضافة لمن سبقنا في الكتابة عنه.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م
سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها